ولكن المسألة ليست كذلك، إذ أن شعبنا وقضيتنا تدفعان ثمن أي ضعف أو تخلف يتسرب من خلالهما العدو ويفتك بنا... فأحد عوامل نزوح عام ٦٧ هو الشرف، أي شرف النساء، أي الخشية عليهن من اعتداءات الصهاينة، كما أوضح صادق العظم في «النقد الذاتي بعد الهزيمة» وأحد عوامل الهجرة - بل التهجير الجماعي عام ٤٨ أن الناس اعتقدوا، ولبساطة تفكيرهم، بما في ذلك آلاف العوائل الميسورة «والبرجوازية» التي رحلت في شهور ما قبل التطهير العرقي، اعتقدوا أنهم يغادرون الوطن لبعض الوقت ويعودون ثانية، دون وعي حقيقي للمشروع الصهيوني ومخططاته، بل راحوا ينتظرون تطبيق القرار ١٩٤ ظناً منهم أن الأمم المتحدة ستعيد حقوقهم... أي لم يخوضوا معركتهم بأنفسهم، علماً أن العودة تتطلب أن يخوضوا في دمائهم كأحد شروط عودتهم...

وعليه، فالخطاب السياسي يعامل كخطاب سياسي، إننا عقلانيون وعلمانيون، ناهيكم عن أننا يساريون، وهذا تراث فكري للبشرية عمره أكثر من قرن، وإذا أردنا الخوض أكثر فالعقلانية أحد مبادئ الزمن الإغريقي منذ ألفي سنة ويزيد، العقلانية ترفض مرجعية النص ومنطوقه، فهي طليقة، ولا مدعاة لإثبات انجازات العقل الجماعي منذ الثورة الصناعية لليوم... طبعاً إننا نحترم الخيارات الضميرية وحرية المعتقد ولكننا ندعو للفصل بين الخطاب السياسي والخطاب المعتقدي، ولولا ذلك لما تأسست وانطلقت م.ت.ف. ولما أمكن نشوء تقاطعات مع «الشيوخ». دعونا نبحث عن المشتركات ونتفادى الخلافات، أو نتعايش معها. فمنذ زمن قال الشافعي الفلسطيني (رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأيك خطأ يحتمل الصواب) لكيما نتفادى الخلافات الفلسفية التي تبعثر الجهود الجماعية، دعونا نتحد مع الآخرين على المشتركات دون تنازل منهم أو منا، كما السعي لرفع مستوى العمل السياسي بدل العودة به للوراء، إلى ثقافة الأولياء الصالحين الذين ينشرون البركة... ولا بد أنكم تعلمون أن الكثير من القرى الفلسطينية قبل النكبة كانت تتفاءل وتتوقع موسماً وفيراً إذا مرّ الحاج أمين الحسيني وهو يعتلي حصانه في حقولهم.... رغم احترامنا الشديد لدوره الوطني، فهو لم يفرّط بالوطن ولم يعترف بإسرائيل ولم يتنازل عن هوية الفلسطينيين وهذا الشيء الطبيعي، أصبح بطولة عظيمة ونحن نصادف قيادات تفرّط أو تبدي رخاوة في التمسك بهذه الثوابت...!

غير معقول تبهيت الفكر السياسي، بالانتقال من «مناهضة الإمبريالية» إلى استجداء الإمبريالية، ومن «تحرير فلسطين» إلى «الاعتراف بإسرائيل»... كما طغيان الشعبوية باللحاق «بالزعيم» دون فحص خطه ونتائج سياسته على القضية بل عدم محاسبته أو مساءلته...

علينا أن نثابر في تطوير العمل السياسي الفلسطيني إلى مستوى رؤية فكرية وبرنامج سياسي